

توافق رؤى شعراء الأندلس مع ابن الرومي في رثاء الأبناء

المدرس الدكتور

شيماء هاتو فعل البهادلي

جامعة البصرة – كلية التربية

الخلاصة :

أوردنا نصوصاً شعيرية من الشعر الأندلسي وشعر الشاعر العباسي ابن الرومي في عرض الرثاء وتحديداً رثاء الأبناء ، ومن المعروف أن هناك تأثراً بين شعراء الأندلس والمشرق وموضوع التوافق يدخل من ضمن التشابه في المضمون والبنية للقائد والمقطوعات ، وقد دعانا البحث إلى الإشارة إليها وذكرها من خلال دراستها ، وهذه القصائد لكل من الشاعر ابن جبير وابن رشيد الفهري وابن الجباب ومقارنتها مع قصيدة ابن الرومي الدالية في رثاء ابنه الأوسط ، وهي معروفة ومتوافرة في أكثر المصادر الشعرية ولا يذكر غرض الرثاء إلا وتذكر هذه القصيدة لشهرتها وصدق المعاناة والألم الذي يلف طياتها ، فضلا عن مقارنة قصائد لشعراء أندلسيين آخرين ومقطوعات شعيرية أندلسية ومقطوعات لابن الرومي .

Abstract

Reported for texts of poetry of poetry Andalusian and poet Abbasid Rumi in the purpose of self-pity, particularly lament their children, it is known that there are affected by the poets of Andalusia and the Levant and the issue of compatibility enters among the similarities in content and structure of poems and pieces, and called us research mentioned and described through the study, these poems per poet Ibn Jubayr and Ibn Rashid Fihri and the son of Jayyab and compared with a poem Rumi deltoid in lament his son's East, which is well known and available in more sources of poetry does not mention the purpose of self-pity but remember this poem to her fame and sincerity of the suffering and pain that surrounds the carries, as well as on the comparison of poems the poets of other Andalusian Andalusian poetry and pieces and pieces of Rumi.

المقدمة :

غرض الرثاء من الأغراض الشعرية المعروفة والواسعة النظم قديماً وحديثاً فهو " باق لا يفنى ما دام الإنسان كائناً اجتماعياً له علاقاته وروابطه مع الآخرين يعيش خضم الحياة ويعاني متاعبها ، ويفجع بمصائبها ، ومادام هناك موت وفناء يعقبان الحياة ويصدمان الموجودات " (١) وأنه من الأغراض الإنسانية الذاتية التي تتطلب المشاركة الوجدانية والانفعالية معاً بغض النظر عن كون المرثي شخصية سياسية ملكاً أو أميراً وهو ما يسمى بالرثاء النفعي الذي تكون فيه المشاركة الوجدانية القصد منها إظهار الحزن ومشاركة أهل المرثي والتقرب لهم والتودد إليهم ، وهناك الرثاء الذاتي (الشخصي) ورثاء الأهل والأقارب ومنه رثاء الأبناء ولا يختلف اثنان في مدى صدق العاطفة والمشاعر والأحاسيس التي يحملها الراثي تجاه المرثي ولاسيما إذا كان الراثي الأب شاعراً والمرثي الابن (٢) وتكتنف غرض الرثاء مشاعر الحزن والألم ولكن ثمة محاور تدور حولها المرثية سواء أكانت قصيدة أم مقطوعة تحمل مجمل هذه الأفكار أو بعضاً منها ففي "بنية الوعي الإنساني يوجد عنصر التعاطف مع الآخر عبر تحسس ألم هذا الآخر في داخل الأنا، أي من خلال قدرة الأنا على افتراض ذاتها خاضعة للألم نفسه ، أو عرضة للمصير نفسه . وفي باب هذا التحسس يدخل شعر الرثاء ، وذلك بوصفه موقفاً ذاتياً من ظاهرة هي موضوعية وذاتية في الوقت عينه ، أنه ولوج الآخر وحالاته عبر الوجدان الذي نملك أن نتصوره كتقرب في الطبيعة الإنسانية يسمح للإنساني أن يعبر إلى الداخل ومن الداخل في أن معاً " (٣) ولأن " أية تجربة أدبية أياً كان بناؤها تنشأ في بدايتها رداً طبيعياً للتصور الذاتي والعاطفي والاجتماعي. وقصيدة الرثاء كانت في نشأتها الأولى تمثل رد الفعل الطبيعي للمأساة البشرية في موقف الموت " (٤) فمن القصائد التي نتناولها بالدراسة قصيدة للشاعر ابن جبير وقصيدة لابن رشيد الفهري وابن الجياب فضلاً عن قصائد شعراء آخرين ومقطوعات .

والشاعر المشرقي الذي تتوحد رؤيته مع شعراء الأندلس في رثاء الأبناء ابن الرومي وهو علي بن العباس بن جريج ، أبو العباس المولود في بغداد (٢٢١-٢٨٤) وكان مولى عبيد بن عيسى بن جعفر بن المنصور والده من الروم ، وأمه أصلها فارسي ، وجده كان مسيحياً^(٥) رزق ثلاثة أبناء هم هبة الله ، ومحمد وثالث لم يذكر الديوان اسمه^(٦) ماتوا جميعاً في طفولتهم ورثاهم الشاعر في

شعره " ولعل من ابرز ما يميز هذا اللون من الرثاء ، هو صفاء العاطفة وصدقها ، وحرارة الانفعال وعمق التوجع وماذا ننتظر من شاعر فقد ... ابناً من أبنائه غير أن يصرخ وينتحب ويصاب بالذهول ، ويلعن الأقدار القاسية ، وينظم شعراً حزيناً موجعاً " (٧) وما اهتمام الشعراء بالرثاء إلا " لأنهم كانوا يجدون في رثاء ذويهم وأحبائهم وأصدقائهم وسيلة لإزالة الأحزان وترويح القلب " (٨) ولهذا قسمت هذه الدراسة على عدة محاور يتمظهر حولها توافق الرؤى بين شعراء الأندلس وابن الرومي :

المحور الأول : المطلع أو المستهل

وهي المطلع أو ابتداء القصيدة ولهذا لا بد من أن يكون مناسباً مع الغرض والمعنى الذي ينظم الشاعر فيه وكما كانت الألفاظ والمعاني ملائمة مع مناسبة القصيدة حكماً عليها بحسن مقدمة القصيدة أو حسن الاستهلال ، وتتمثل مقدمة قصيدة الشاعر ابن الرومي التي يرثي فيها ابنه الأوسط محمد بقوله (٩):

بكاؤكُمَا يشفي وإن كان لا يُجدي فجودا فقد أودى نَظيركُمَا عندي
بُنَيَّ الذي أهدته كَفَايَ للثرى فَيَا عَزَّةَ المُهدَى ويا حَسْرَةَ المُهدي
ألا قاتل اللّه المنايا ورميها من القوم حَبَاتِ القلوب على عمد

يبدأ الشاعر قصيدته بمخاطبة عينيه بعدم نفع بكائهما ، فالبكاء والدموع جاء من لوعة وحرقة يتألم منها ففيهما راحة للنفس وترويح عن الهم واصفاً ذلك بأنه شفاء له ، وقد جاء البكاء نتيجة طبيعية يؤنب بها نفسه لأنه قام بإيداعه الثرى فضلاً عن إحساسه بعدم جدوى فقدانه لذلك جعل ابنه بمنزلة عينيه ويصل به الأمر إلى أنه يدعو لمقاتلة المنايا التي تأخذ ما تريده ومن دون مقدمات .

ولنلاحظ مقدمات قصائد الشعراء قياساً مع مقدمة ابن الرومي ، وأول هذه القصائد الأندلسية قصيدة ابن جبير قائلاً فيها (١٠) :

رأى الحزنُ ما عندي من الحزن والكرب فرُوعَ من حالي فلم يستطع فُرْبِي
وأظهرَ عَجْزاً عن مُقاومةِ الأسَى وأيقن أنَّ الخُطبَ أعظمَ من خُطْبِي
وقال التمس غيري لِنَفْسِكَ صَاحِبَا وقُلْ للردى حَسْبِي بَلَغتِ المدى حَسْبِي
فَقُلْتُ وَهَلْ يَكْفِينِي الوَجْدُ صَاحِبَا وَكَيْفَ وَمَا بِي قَدْ تَعَدَّى إلى صَحْبِي

فَلَمَّا انْتَهَتْ بِي شِدَّتِي فِي مُصِيبَتِي وَبَرَّحَ بِي يَا سِي رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي
فَاسْتَنْشِقِن رَوْحَ الرِّضَى بِقَضَائِهِ فَتَنَادَيْتُ يَا بَرْدَ النَّسِيمِ عَلَى قَلْبِي

يفتح الشاعر قصيدته في بيان شدة حزنه وألمه على فقد ابنه متعجباً مبدياً خوفه من خلال تشخيصه الحزن عندما قال - رأى الحزن - بإعطاء صفة الحزن المعنوية أحد الحواس الخمس وهي النظر مظهراً العجز والخوف والأسى عاقداً محاوراً بينه وبين الحزن ليظهر شدة حزنه ولوعته على ابنه ولكن حتى الحزن يبتعد عنه ويرجو أن يلتصق غيره صديقاً وكأنه في حالة ركون فلا مجيب ولا معين فقد تخلى الحزن عنه وعن مصاحبته . ووجد الجانب الإيقاعي للقصيدة يبرز أكثر في تكراره حرف القافية الباء في كل بيت مرتين إلى أربع مرات فضلاً عن تكرار الألفاظ (الحزن، الخطب ، صاحباً ، حسبي) وتكرار هذه الألفاظ يعطي قوة المعنى وترابطه ويضفي نوعاً من الانسجام والتناسب ويزيد التناغم فضلاً عن النغم الذي يعطيه بحر الطويل إليها .

ونلمس من القصيدة الثانية في رثاء الأبناء للشاعر الأندلسي علي بن محمد بن سليمان بن حسن الأنصاري المعروف بابن الجياب ألفاظ الحزن ومعانيه راثياً فيها ولده قائلاً فيها (١١) :

هو البين ظناً لا لعلَّ ولا عسى فما بالُ نفسي لم تفيض عنده أسي
وما لفوادي لم يدب منه حسرةً فتنبأ لهذا القلب سرعان ما نسي
وما لجفوني لا تفيضُ مورداً من الدمع يهمي تارةً ومورساً
وما للسانني مُفصِحاً بخطابه وما كان لو أوفى بعهدي لينبسا

يبدأ الشاعر أبياته بعدم جدوى التمني والترجي لأن المحظور قد صار، ومات من كان يخاف موته فهو من مرارة الألم يشرك الحواس ، فواده وجفونه ولسانه أحزانه ، ففواده مليء بالحسرات ، وجفونه تترقرق فيها الدموع ، ولسانه يفصح عن مشاعر المرثي وأحاسيسه " ... ومهما يكن من عظم الفقد فإن على الشاعر أن يمضي في حياته ، وهي في ذلك كالموت قدر مرسوم للإنسان . وهذا يدفع الشاعر إلى تلمس ما يعز به ويخفف عنه آلامه وأحزانه .. وفكرته الأساسية هنا إن الموت حتم لا بد منه ولا جدوى من أية محاولة للتغلب عليه.." (١٢) والقصيدة الثالثة للشاعر ابن رشيد الفهري يرثي ابنه محمداً الذي ثكله بغرناطة يقول فيها (١٣) :

شَبَابٌ ثَوَى شَابَتْ عَلَيْهِ الْمَفَارِقُ وَعُصْنٌ ذَوَى تَأَقَّتْ إِلَيْهِ الْحَدَائِقُ
عَلَى حِينِ رَاقٍ النَّاطِرِينَ بُسُوْفُهُ رَمَنَّهُ سِيْهَامٌ لِلْعِيُونَ رَوَاشِقُ
فَمَا أَخْطَأَتْ مِنْهُ الْفُؤَادَ بَعْمَدَهَا فَلَا أَبْصَرَتْ تِلْكَ الْعُيُونَ الرُّوَامِقُ

يبدأ الشاعر قصيدته في رثاء ابنه بذكر شبابه وصغر سنه ، فقد كان الشباب والنضارة التي يمتلكها المرثي سبباً في توجيه الأنظار إليه و عيونهم ترشقه بنظراتها ويبدو أنّ الشاعر قد أحسن في اختياره للفظة (رواشق) التي تدل من خلال لفظها مدى الضرر والأذى الذي تعرض لها فاردته ميتاً .
ونخلص إلى القول: اشترك مستهل شعراء الأندلس مع مستهل قصيدة ابن الرومي الدالية التي "يكون مضمارها ميلاداً أبدياً له يضمنه خلود الكلمة التي أبدعتها عبقرية الشاعر وحرارة التجربة وعمق الجرح الذي صنعه الأيام" (١٤) بأبيات تتضمن معاني الحزن والبكاء وألفاظ اللوعة والحرقة على فقدان الابن وعمق المأساة وفقدان الأمل والرجاء من رجعتة وهذا الأمر بديهي لابد للشعراء الرائيين من تناوله في افتتاحية قصائدهم ، وقد جاءت مقدماتهم ملائمة مع مقصدهم من القصيدة طبقاً للقاعدة البلاغية المعروفة مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

المحور الثاني : الشكوى إلى الله

أما هذا المحور فيحمل أبيات الشكوى إلى الله ويكون فيها الشاعر خاضعاً مقرأً لإرادة الله والموت الذي لا سبيل للفرار منه وهو بذلك " يستبدل ذلك العزاء برؤية الاحتساب عند الله تعالى لتكون معادلاً موضوعياً بين الحزن الذي يدعو إلى القنوط والحزن الذي يورث صاحبه أملاً رحباً يخفف عنه كثيراً من آلامه" (١٥)

وتتضح هذه الشكوى في قول ابن الرومي :

ولكن ربي شاء غير مشيئتي وللرب إمضاء المشيئة لا العبد

هنا يعلن الشاعر عجزه أمام مشيئة الله وقدرته فهو القضاء والقدر الذي لا مفر منه ، ولعلها نوع من المواساة للنفس وتطبيب الخواطر وتوجيه الصبر والتمسك بالله ، عسى أن يكون العزاء الأبدي له .
أما الشاعر ابن جبير فبعد تلك المقدمة يلتمس لنفسه ما يشاركه في أهاته في قوله :

إلى الله أشكو بالرزايا وفعلها فقد كدرت شربي وقد روعت سربي

يبدو الشاعر مذعناً ومستسلماً إلى الله جاعلاً من العليم الملجأ والمأوى الذي يشكو إليه حاله بعد أن فعلت المصائب فعلها فكدرت حياته وسببت له التعاسة والشقاء وشتت شمل عائلته وتبدو شدة الأزمة في بداية مطلع القصيدة ثم انفكاكها ولو بشكل تدريجي في التسليم والتوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر.

ويقول ابن الجياب في شكواه إلى الله :

تَلَبَّسَ مِنْهُ الْقَلْبُ مَا قَدْ تَلَبَّسَا	إلى الله أشكو برح حزني فإيه
فما أغنت الشكوى ولا نفع الأسا	وصدمة خطب نازلتني عشية
وقد هدمت ركني الوثيق المؤسسا	فقد صدعت شملي وأصمت مقاتلي
فما زلزلت صبري الجميل وقد رسا	ثبت لها صبراً لشدة وقعها
وأجزع أن نشقى بذنب فننكسا	وأطمع أن نلقى برحمته الرضا

يشكو الشاعر إلى ربه حزنه العميق على ابنه وتلك الصدمة التي أصابته وقوضت أركانه وانتزعت منه صحته حتى أنه لم يجد وسيلة ولا مخرجاً مما أصيب به ، مستعيناً بالصبر عسى أن يكون له المعين والملجأ طالباً له الرحمة والمغفرة وأن يتجاوز عن ذنوبه ويكون من الراضين الذين يشملهم الله برحمته ونيل رضائه وتتجلى الشكوى إلى الله عند الشاعر ابن رشيد الفهري في قوله :

إلى الله أشكو فهو يشكى نوازعاً عظماً سطاها للعظام عوارق
ولا مثل فقدان البني فجعته وإن طال ما لحت ولجت بوائق

لقد تعايش الحزن مع الشاعر ولم يستطع التغلب عليه على الرغم من مرور الوقت الطويل على وفاته ولأنها الفاجعة الكبرى التي ابتلى فيها يبدو عليه الاستسلام والإذعان شاكياً حاله إلى الله . خلاصة القول :يؤدي القضاء والقدر والإرادة الربانية ومشية الله التي غلبت مشيئة البشر إلى وقوف الإنسان أمامها عاجزاً مستسلماً ، ومما يلفت النظر إن الشعراء بعد مقدماتهم وبيان لوعاتهم وفاجعتهم الكبيرة ينتقلون مباشرة إلى ذكر شكواهم لله لأن لا أحد يمكنه أن يشعر بمرارتهم إلا الله تعالى ، فهو الموت الذي لا يقبل الفدية ولا الأسي وإنما الاحتساب وذكر الله الذي يخفف من الإنسان آهاته ويضمّد جراحاته .

المحور الثالث : حديث الشاعر عن نفسه وابنه

ويتضمن حديث الشاعر عن نفسه فيتذكر الماضي وما كان ينعم به من سعادة وهناء مع ابنه وكأن الشاعر يرثي نفسه ، ويبدو هذا المحور عند الشاعر ابن الرومي الذي يسهب فيه مفصلاً عن فاجعته الأليمة بقوله:

توخى حَمَامَ الموت أوسط صبيتي	فله كيف اختار واسطة العقد
على حين شمتُ الخير من لمحاته	وأنستُ من أفعاله آية الرُشد
طواه الردى عني فأضحى مزارُهُ	بعيداً على قُرب قريباً على بُعد
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها	وأخلفت الآمال ما كان من وعد

يجعل الشاعر من الموت وحشاً خاطفاً ابنه موضعاً عمق معاناته لأنه اقتنص أعز ما لديه وتشبيهه غاية في الدقة فقد شبه ابنه الأوسط من حيث منزلته عنده بواسطة العقد التي تربط العقد من جميع جوانبه لأنها جالبة للنظر ولكن المنايا أطاحت بكل آماله وما كان ينتظره منه من خير ، كبر سنه ورؤيته أمامه وهو يلعب ويرتع ويحقق له ما يتمناه ويصبو إليه. فأصبح بعيداً عنه وهو القريب على قلبه لأن أيدي المنون قد اخذته ف " الموت مؤثر نفسي يدخل في تشكيل الصورة ، ويتفق كثيرون على أن الموت واحد من أهم المواضيع التي تدفع لابتداع الصورة المؤثرة التي يجري في عروقها دماء العاطفة وتسري في شرايينها جذوة الانفعال " (١٦) ويسترسل ابن الرومي في الحديث عن ابنه قائلاً :

لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ المَهْدِ واللُّحْدِ لُبُّهُ	فلم يئسَ عَهْدَ المَهْدِ إذ ضُمَّ في اللُّحْدِ
أَلَحَّ عليه النَّزْفُ حَتَّى أحواله	إلى صُفْرَةِ الجادِيّ عن حُمْرَةِ الوَرْدِ
وظلَّ على الأيدي تَساقطُ نَفْسُهُ	ويذوي كما يذوي القَضيبُ من الرِّندِ

ينبع عمق انفعال الشاعر من صغر سن ابنه عندما فارق الحياة فضمه القبر وهو لم يتمتع بالحياة بعد ولم يره يكبر ويترعرع أمام ناظريه ويبدو من قول الشاعر أن سبب وفاته هو إصابته بالنزف فحول ذلك الوجه الجميل إلى أصفر شاحب تبدو عليه دلائل الموت وهو ينتقل من يد إلى أخرى محاولة إنقاذ حياته ولكن من دون فائدة .

وينتقل بعد ذلك للحديث عن نفسه ومشاعره قائلاً :

فِيَاكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا تساقط درّ من نظام بلا عقد
عجبتُ لقلبي كيف لم ينقَطِرْ لَهُ ولو أنّهُ أفسى من الحجر الصلِّدِ
بودّي أنني كنتُ فُذِّمْتُ قَبْلَهُ وأن المنايا دُونَهُ صَمَدَتِ صَمَدِي

يبدو الشاعر متعجباً من أمره كيف يقف أمام القضاء والقدر صامداً؟ ويتمنى أن يكون الأجل اختاره مكان ابنه ومن هنا يأتي لومه وتعجبه من نفسه كيف صبر وتحمل الفقد والابتعاد عنه مع ما يحتله ابنه من منزلة ومكانه في قلبه فنلاحظه لذلك يرمي نفسه ويتهمها بالقسوة والنسيان .

ثم يقول : وما سرني أن بعثته بنوآبسه
ولا بعثته طوعاً ولكن غصبته وليس على ظلم الحوادث من مُعدي
وإني وإن مُتَّعْتُ بابني بَعْدَهُ لذاكره ما حنَّت النَّيبُ في نَجْدِ
وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البينَ الفقدِ
لكل مكان لا يسدُّ اختلاله مكان أخيه في جزوع ولا جلدِ
هل العين بعد السمع تكفي مكانه أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي

من أفسى ما يكون عليه العبد عندما يفقد إنساناً يحبه ، حالة اللوم وتأنيب الضمير كأنه سلمه للقدر مقابل جنات الخلد التي وعد الله بها عباده الصابرين موضحاً أن القدر أخذه منه عنوةً . لهذا يوصي نفسه بالصبر والتجدد أمام مصائب القدر ممثلاً أهميته بالجوارح التي لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها ولا ينفعه التعويض عنها .

ويكمل الشاعر حديثه عن نفسه :

لعمري لقد حالت بي الحال بعدة فيا ليت شعري كيف حالت به بعدي
تكلت سروري كُله إذ تكلته وأصبحت في لذات عيشي أخاً زهدِ
أريحانة العينين والأنف والحشا ألا ليت شعري هل تغيرت عن عهدي
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به وإن كانت السقيا من الدمع لا تُجدي

لم تكن الحياة تعني أي شيء للشاعر بعد فقدان ابنه وتغير أحواله ولذلك نلاحظه يكرر المعنى الذي جاء به في بداية القصيدة وهو البكاء والدمع الذي لا ينفع وكأنه لا يملك غيره معتمداً عليه معبراً به

عن شدة حسراته وحزنه وهذا يؤكد إفلاسه من الدنيا فلا حول ولا قوة لديه إلا تلك الدمعة التي يذرفها عليه .

وإذا جئنا إلى انتقاله الشاعر ابن جبير في بيان آهاته ومعاناة الأم وحسراتها ففي القصيدة " رثاء حزين يدل على أسى الوالد وحسرتة ويذكر فيه لوعة الأم ... " (١٧) مقابل حزنه الأبدي عليه موضعاً ذلك في قوله :

فَحَزُنِّي عَلَيْهِ جَاوَزَ الْحَدَّ قَدْرُهُ	وَلَا حُزْنَ يَعْقُوبَ ، وَيُوسُفُ فِي الْجُبِّ
وَأَكْثَرُ إِشْفَاقٍ لَأُمَّ حَزِينَةٍ	مُقَسَّمَةٍ بَيْنَ الْأَسَى فِيهِ وَالْحُوبِ
وَأَذْهَلَهَا عَنْ حَالِهَا فَرَطٌ وَجَدِهَا	عَلَيْهِ وَقَدْ يُسْتَسْهَلُ الصَّعْبُ لِلصَّعْبِ
بُنَى أَجْبَهَا فَهِيَ تَدْعُوكَ حَسْرَةً	وَأَذْمُعَهَا تَنْهَلُ غَرْبًا عَلَى غَرْبِ
بُنَى أَحَقًّا صِرْتَ رَهْنًا يَدِ الْبَلَى	وَتَهَبَ الثَّرَى أَمْسَيْتَ يَالْكَ مِنْ نَهَبِ
بُنَى عَسَاهَا نَوْمَةٌ فَانْتَبَاهَهُ	فَكَمْ ذَا أَنْادِي الْعَيْنَ طَالَ الْكَرَى تَعْبِي

يضرب الشاعر مثلاً في إشارة منه إلى شدة حزنه على ابنه بحزن النبي يعقوب على النبي يوسف (عليهما السلام) عندما رُمي في الجب بل أن حزنه فاق حزن النبي يعقوب لأنه يرجى عودته و ينتظرها فهناك أمل كبير في رؤيته على العكس من فقدان الأمل من عودة ابنه وشتان ما بين هذا وذاك فالميت لا يرجى ولا ينتظر منه شيء ، ثم يصور المشاعر الجياشة للأُم مبيناً العذابات والأنين التي تحملها الأُم الثكلى التي ذهلت بمصاب ابنها مجسداً هذه المشاعر من خلال تكراره لكلمة (بُنَى) ودقة اختياره للألفاظ التي عبرت عن حالها وإظهار اللوعة والفجيرة وعدم تصديقها بموته وقد دفن تحت الثرى فضلاً عن ذلك تكراره للألفاظ (حزن ، الصعب ، نهب ، غرب) وترافقهم معاً يعني شدة وجعهما وتزامن احزانهما .

أما الشاعر ابن الجياب فيقول بعد مطلع قصيدته :

أَمِنْ بَعْدِ مَا أودَعْتَ رُوحِي فِي الثَّرَى	وَرَمَدْتُ مَنِّي فَلذَّةِ الْقَلْبِ مَرَمَسًا
وَبَعْدَ فِرَاقِ ابْنِي أَبِي الْقَاسِمِ الَّذِي	كَسَانِي ثُوبَ الْكُلِّ لَا كَانَ مَلِيَسًا
أَوْمَلُّ فِي الدُّنْيَا حَيَاةً وَأَرْتَضِي	مَقِيلاً لَدَى أَبِيآتِهَا وَمَعْرَسًا
فَإِهِ وَلِلْمَفْجُوعِ فِيهَا اسْتِرَاحَةً	وَلَا بُدَّ لِلْمَصْدُورِ أَنْ يَنْقَسَا

على عُمرِ أفنيتُ فيه بضاعتي فأسلمني للقبر حيرانَ مُفلسا
ظللْتُ به في غفلةٍ وجهالسةٍ إلى أن رمى سَهَمَ الفراقِ ففَرطسا

يستفهم الشاعر متعجباً من نفسه غير راضٍ قد انقطع أمله ويئس من الحياة بعد موت ابنه الذي كساه الألم والأذى ، وفيما يبدو فإن الشاعر لم يضع في حسبانهِ أنه يفقد ابنه لذلك جاءت ردة فعله عنيفة فقد زهد في حياته متأسفاً على عمره الذي أفنى فيه بضاعته فازدادت آهاته وهو في غفلة فجاء الموت وخطفه منه " والذي لا شك فيه أن الموت يشكل تهديداً لرغبة الإنسان الجامعة في البقاء ويمثل تناقضاً حاداً مع ميل الإنسان نحو الخلود والأبدية " (١٨) . ولننظر إلى قوله :

أحقاً ثوى ذلك الشباب فلا أرى له بعد هذا اليوم حولي مجلسا
فيا عُصناً نضراً ذوى عندما استوى فأوحشني أضعافاً ما كان أنسا
يا نعمةً لما تبلغتها انقضت فأنعمُ أحوالي بما عاد أباسا
فودعته والدمعُ يهمي سحابه كما أسلم السلك الفريد المجنسا
وقبَلْتُ في ذلكَ الجبينَ مودَّعاً لأكرم من نفسي عليّ وأنفسا
وخففت من وجدي به قربُ رحلتي وماذا عسى أن ينظر الدهر ما عسى

الشباب والحيوية للمرثي وكبر السن والشيخوخة للرائي وكأن الشاعر يتمنى لو كان مكانه ولكن الواقع غير ذلك فنلحظه لذلك يفيض في إظهار مشاعره ويتساءل عن ذلك الشباب الذي ارأه الأسي فيناديه بالغصن الفتى الذي ثوى في التراب ، والنعمة التي ذهبت فصارت النعم حوله كلها بؤس وعناء ، مستشهداً بدموعه التي أصبحت مثل السحابة تنزل المطر بغزارة وكذلك هي حاله يُصبرها بقرب اللقاء به .

وفي قول ابن رشيد الفهري :

سَبَقَتْ كَهولاً في الطُفولة لا تني وأرهقت أشياخاً وأنت مُراهقُ
فلو لم يَغْلُك الموتُ مُتٌ مُجلياً وأقبل سَكيتاً وَجِيهٌ وَلا حِقُ
على مَهَلٍ أحرزت ما شئتَ ثانياً عِنائك لا تُجهد وأنت مُسابقُ
لئن سَلَبت مَني نَفيسَ دَخائِرِ فإني بِمَذخورِ الأَجورِ لَوائقُ
وَقَد كانَ ظنِّي أَنني لَكَ سابقُ فَقد صارَ علمي أَنني بِكَ لاحقُ

الشاعر هنا يعاتب القدر ويلومه لأنه أخذ منه أعز ما يملك فهو سبق الشيوخ الذين يكبرونه ، والمراقبين بعمره ومن أجل اطمئنان نفسه فإنه يعللها بالحقاق به إن لم يكن سابقاً له ، وكأنه لا حيلة لديه حتى يمني نفسه به إلا الآمال والأجر والثواب في الآخرة .

ملخص القول : مما تجدر الإشارة إليه إن الشعراء يفصحون ويسهبون في الحديث عن أحزانهم وذكرياتهم مع أبنائهم كأنما فيه تخفيف عن الأملهم طالبين من الزمن الرجوع إلى الوراء وكأن نوعاً من الأحلام غير المتحققة يستخدمون فيها الألفاظ والعبارات التي توحى بعدم التصديق والرضوخ لإرادة الموت (أحقاً ثوى، طواه الردى ، ظللت به في غفلة وجهالة ، بني أحقاً صرت رهن البلى)

المحور الرابع: ذكر اسم ابنه وصغر سنه

ويركز الشاعر في هذا المحور على ذكر اسم ابنه وصغر سنه ، وفيه يقول ابن الرومي مفصلاً عن حاله متلذذاً بذكر اسم ابنه (محمد) :

الألم لما أبدي عليك من الأسي	وإني لأخفي منه أضعاف ما أبدي
محمد ما شيءٌ تُوهَمَ سلوةٌ	لقلبي إلا زاد قلبي من الوجد
أرى أخويك الباقيين فإنما	يكونان للأحزان أوزى من الزند
إذا لعبا في ملعبٍ لك لدعا	فؤادي بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لي سلوةٌ بل حزانةٌ	يهيجانها دُوني وأشقى بها وحدي
وأنت وإن أفردت في دار وحشةٍ	فإني بدار الأُس في وحشة الفرد
أود إذا ما الموت أوقد معشراً	إلى عسكر الأموات أتى من الوفد

كثيراً ما يوجه للشاعر الانتقاد واللوم على ما يبديه من حزن واسى على فقد ابنه علماً أنه يخفي مشاعره ولم يبدها كلها ، ومما يزيد من عذاباته عدم وجود السلوى التي تنسيه آهاته حتى مع وجود إخوته بل أن وجودهم يزيد ألمه وزفراته أنينا فكل ما يؤدونه يذكره بابنه لأن " الألم هو أعمق مراحل المواجهة مع الواقع ، وإن الشاعر المتألم يكون اصدق تعبيراً من غيره ليس لأن الألم أكبر من الحزن وأعمق غوراً في النفس فحسب ، وإنما لأنه يدفع إلى التفكير في الخلاص ، وإلى وضع حد للمعاناة " (١٩) ويتمنى لو أن القدر يأخذه مع مَنْ يأخذ من الأموات لأنه أصبح في دار الوحشة فهو لا يستلذ بها ولا تعني له شيئاً أبداً فضلاً عن ذلك يتمنى لو يتمكن من رؤيته ولو بالأحلام .

وفي هذه الأبيات يوضح ابن جبير مكانة ابنه (أحمد) بين أبناء عشيرته قائلاً فيها :

وَيَا أَحْمَدَ الْمَحْمُودُ قَدْ كُنْتَ مُشْبِهًا	بَطِيبِ الْخَلَالِ الْخُلُوعِ وَالْبَارِدِ الْعَذْبِ
لَأَلْ جُبَيْرِ فِيكَ أَيُّ فَجِيعَةٍ	فَمَا مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَفِيقُ مِنَ الْكَرْبِ
وَقَدْ كُنْتَ وَسْطَى الْعَقْدِ فِيهِمْ قَرُبًا	نَقَضْتَ فَصَارَ الْعَقْدُ مُنْتَثِرَ الْحَبِّ
جَوَادًا كَرِيمَ النَّفْسِ يَلْتَنِدُ بِالنَّدَى	فَتَسْخُرُ وَلَا يُخْفِي وَيُحْنِي وَلَا يَجْبِي
حَرِيصًا عَلَى نَيْلِ الْمَعَالِي بِهَمَّةٍ	كَسَبْتَ بِهَا مِنْ ذَخْرِهَا أَفْضَلَ الْكَسْبِ

ويشتق الشاعر من اسم ابنه أحمد صفاته فهو محمود يتصف بالصفات والأخلاق الحميدة ، فقد كان له منزلة وأهمية بين أبناء عشيرته لأنه الجامع لهم ، ناعياً مزايا ابنه مشيراً إلى صفاته وخلالها من كرم وجود وسخاء ونيل للمعالي .

أما الشاعر ابن رشيد الفهري فيخاطب ابنه (محمد) بقوله:

مَحْمَدُ إِنَّ الصَّبْرَ صَبِيرٌ وَعَلَمٌ	عَلَى أَنَّهُ حُلُو الْمُنَابَةِ سَابِقٌ
فَإِنْ جَزَعًا قَالَهُ لِلْعَبْدِ عَادِرٍ	وَإِنْ جَلْدًا قَالَهُ لِلْوَعْدِ صَادِقٌ
وَتَالله مَا لِي بَعْدَ عَيْشِكَ لَذَّةٌ	وَلَا رَاقِنِي مَرَأَى لِعَيْنِي رَائِقٌ

لابد للشخص الذي تكل بعزیز عليه أن يتكى على الصبر بعد أن يستنفد أهاته وبكائه لاسيما إن الله بشر الصابرين وجعلهم في منزلة عظيمة تكون جزاء لهم لذلك يصرح باسم ابنه ويوجه كلامه له مبيناً أهمية الصبر ومنافعه الجميلة على الرغم من مرارته ، ثم يستأنف كلامه ليوضح مدى الجزع والهلع اللذين يراودانه في حين يوجه الشاعر ابن الجياب حديثه إلى ابنه ذاكراً اسمه (ابا القاسم) قائلاً :

أبا القاسم اسمع شجو والدك الذي	حسا من كؤوس البين أقطع ما حسا
وقففت فوادي مذ رحلت على الأسي	وأشهد لا ينفك وقفا محبسا
وقطعت آمالي من الناس كلهم	فلمست أبالي أحسن المرء أم أسا
تواريت يا شمسي وبدري وناظري	فصار وجودي مذ تواريت جنديسا
وخلفت لي عبئاً من الثكل فادحاً	فما أتعب الثكلان نفساً وأتعسا

ينادي الشاعر ولده ويخبره بالحال التي هو فيها ، وكأنه إنسان على قيد الحياة ما يزال يسمعه ويراه ويتفاعل معه فيسرد له أحاسيسه ومشاعره وانفعالاته فهو لا يريد أن يصدق ما حدث له " وليس

خافياً أن الحياة والموت هما المقومان الأساسيان للوجود الإنساني وهما مقومان متكاملان ، لا يتحدد جوهر أحدهما إلا بالآخر . ومن هنا كان الموت وسيظل مشكلة وجودية شاملة ودائمة ، تماماً كما هي الحياة " (٢٠) فبموته خلف لأبيه تكللاً فادحاً أتعب نفسه وسبب لها التعاسة والشقاء . ونخلص إلى القول : اشترك الشاعرين ابن الرومي وابن رشيد في اسمي ابنيهما (محمد) بينما ينفرد ابن جبير واسم ابنه (أحمد) وابن الجياب اسم ابنه (ابا القاسم) وكلهم أسماءهم دينية نسبة إلى اسم النبي محمد (ص) وكنيته ، فكل مناداة الشعراء تتمثل في الحديث عن أحزانهم وصفاتهم وما لاقاه الأباء من عذاب ومعاناة نتيجة تكلهم ورافقهم لهم ، والأسماء توحى بالتأسي والتصبر ومناداة مَنْ لا يجيب وقلوبهم تنزف ألماً فهو حديث النفس مع النفس التي ملئت حسرة وزفرة على ابن خلف لابييه عمراً لا قيمة له أصبح فيه الوالد زاهداً شجياً جزءاً مرة وأخرى صابراً محتسباً ربه تأخذه الذكريات وتلقيه في بحر لا قرار له .

المحور الخامس : السقيا والدعاء بالرحمة

يحتوي هذا المحور على دعاء الشعراء لأبنائهم بالسقيا لأن فيه إعادة الحياة والرحمة والبعث والنقاء والخلاص وطيب العيش (٢١) والسلام على الميت الذي يدل على نهاية المطاف وخاتمة بعد أن استنفد الشاعر كل مشاعره وأحزانه وبعُد أمانيه وتقبُّله للأمر الواقع والرضوخ له ، ويختتم الشاعر ابن الرومي قصيدته بالدعاء بقوله :

ومن كان يَسْتَهْدِي حَبِيْباً هَدِيَّةً فَطَيْفُ خِيَالِ مَنْكَ فِي النُّومِ أَسْتَهْدِي
عليك سلامُ الله مني تحيةً ومن كلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ

بعد أن يعرض الشاعر مشاعره وأحاسيسه الحزينة التي أهمته منذ وفاة ولده وانقطاع الأمل من رؤيته حقيقة يتكل على الأمانى والأحلام عسى أن يراه في الطيف داعياً له بالرحمة موجهاً إليه سلام الميت طالباً له السقيا الغزيرة المصحوبة بالرعْد والبرق من الغيث تضيء له مكانه .

أما خاتمة الشاعر ابن جبير فيشير إليها بقوله :

رَضِيْتُ بِحُكْمِ اللَّهِ فِيكَ فَإِنَّمَا نُقِلْتُ لِحَزْبِ اللَّهِ بُورِكَ مِنْ حَزْبِ
وَأَبِي لِرَأْضِ عَنكَ فَابْشِرْ فَبِالرَّضَى أَرْجِي لَكَ الزُّلْفَى وَمَعْفُورَةَ الدُّنْبِ
فَجَادَتْ عَلَى مَثْوَاكَ مُرْتَهُ رَحْمَةً وَيَوَاكَ الرَّحْمَنُ فِي الْمَنْزِلِ الرَّحْبِ

يختم الشاعر قصيدته بأبيات الرضوخ والأيمان بقضاء الله وقدره والاستسلام له لأن " اتحاد الشاعر بالموت يحقق له حريته المطلقة. فيستعبد العالم في نفسه ويحتويه كله دفعة واحدة . انه يعود لأصله متحداً بالقوى الإلهية " (٢٢) يدعو فيها لقبره بالسقيا بأن يهب سحباً تنزل عليه المطر رحمة ومغفرة به ، ويدعو الله أن يعطيه منزلة عالية ومكاناً رحباً فسيحاً . بينما يختتم الشاعر ابن الجياب معاناته التي يبثها في قصيدته بقوله :

فيا رحمة للشيب يبكي شبيبة	قياسُ لعمرى عكسُهُ كان أمتسا
فلو أن هذا الموت يقبل فدية	حبوناهُ أموالاً كراماً وأنفسا
ولكنه حكم من الله واجب	يُسلم فيه من يخبره انتسى
تغمدك الرحمن بالعمو والرضا	وكرم مثواك الجديد وقدا
وَألف منا الشمل في جنة العلا	فنشرب تسنيماً ونلبس سندسا

لو كان الموت يقبل الفدية لقدّم الشاعر الغالي والنفيس من أمواله ولكن حكم الله والقضاء والقدر لا يقبل الفدية وهو لذلك يستسلم للقضاء وهكذا " واجه الإنسان الموت قديماً وحديثاً بطرق شتى ، ووسائل مختلفة وظل الموت هو المنتصر في الأغلب الأعم " (٢٣) طالباً العفو والرحمة وداعياً لمثواه الجديد بالتكريم والتقدّيس وأن يجمعهما الله ويكون مثواهما الجنة ونلاحظ تأثر ألفاظ الشاعر بالقران الكريم معتمداً على قوله تعالى (وَمَزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ) { (٢٤) وقوله تعالى { ... وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ ... } (٢٥)

أما ابن رشيد فيصل إلى خاتمة المطاف ليقدم ملخصاً عن رثائه لابنه قائلاً :

فيا واحداً قد كان للعين نورها	أكل ضياء بعد بُعدك غاسق
عليك سلام الله ما حنّ عاشق	وما طلعت شمس وما ذرّ شارق
وما همعت سحباً غوادٍ لوائح	وما لمعت تحدو الرعود البوارق
وجاداً على مثواك غيث مروّض	عهاداً لرضوان الإله موافق

ماذا يوجه الشاعر في نهاية قصيدته بعد أن أفصح عن أنيه وحنينه للمرثي الذي زاد لهيبه وحرك لواعج صدره معطياً صفة الوحدة والنور والضياء لعينيه التي حولت بعده عنه إلى ظلام فهو من

أجل ذلك يوجه التحية له تحية الميت ويدعو له بالسقيا من السحب بأن تجود عليه وأن يضيء البرق له قبره وتشمله رحمة الله ومغفرته ورضوانه .

خلاصة القول : دعاء الشعراء لابنائهم في خاتمة رثائهم يوحى بالرضا والقبول والمغفرة لهم ويدل على سعة المحبة والثقل والقلوب المكلومة التي ابتليت بفقد الابن فأضحت راضية قانعة بقضاء الله مستسلمة لإرادته ليس لها بُدُّ إلا الإذعان والصبر لأن الصابرين قد بشرهم الله بجنانه وثوابه الأبدى .

أما ما ينفرد به شاعر ويلتقي به مع شاعر آخر فسوف نعرضه من خلال التأثر الذي يلجأ إليه شعراء الأندلس مع بعضهم ، ومع الشاعر ابن الرومي ، ولنعرض تأثر الشاعر ابن رشيد في قصيدته مع ابن الرومي في حديثه عن ذكرياته مع ابنه قائلاً :

وَأَيْ بِهِ وَالْمَذْكُورَاتِ عَدِيدَةٌ	فَقُبِّلْ وَفَهْمٌ لِلْعَوَائِدِ خَارِقُ
فَإِنْ أَلْتَقَيْتَ فَالشَّخْصَ لِلْعَيْنِ مَائِلُ	وَإِنْ أَسْتَمِعَ فَالصَّوْتِ لِلْأُذُنِ طَارِقُ
وَإِنْ أَدْعُ شَخْصًا بِاسْمِهِ لِضُرُورَةٍ	فَإِنْ إِسْمِكَ الْمَحْبُوبِ لِلنُّطْقِ سَابِقُ
وَكَأَنَّ كِتَابَ قُدِّ حَوَيْتَ فَمُذَكَّرُ	وَآثَارُهُ كَمَلِّ إِلَيْكَ تَوَائِقُ

يعاني الشاعر من ذكريات وأمور تذكره بالمرثي وان استند إلى الصبر وتسليح به ، وهذه الذكريات تسبب الهم والغم له وان حاول نسيانه ومنها النظر والسمع فهو لا يسمع ولا يرى غير ابنه ولا يحب أن ينادي شخصاً إلا باسم ابنه فضلاً عن كتبه وآثاره وطرق الباب الذي يفرع له قلبه ويذهب ابن رشيق إلى القول " إن الشاعر في رثاء الأطفال يذكر مخايلهم ، وما كانت الفراسة تعطيه فيهم ، مع تحزن لمصابهم وتفجع بهم " (٢٦) في حين لا نتفق مع قوله إن من أشد الرثاء صعوبة على الشاعر رثائه للطفل لضيق الكلام عليه وقلة الصفات وما وجدناه عكس ما أشار إليه ابن رشيق(٢٧)

في حين يعتمد الشاعر ابن الرومي على التكرار في بيان مشاعره والإشادة بذكرياته قائلاً :

أعيني: جودا لي فقد جذت للثرى	بأنفس مما تُسألان من الرفد
أعيني: إن لا تسعداني ألكما	وإن تسعداني اليوم تستوجبا حمدي
عذرتكما لو تشغلان عن البكا	بنوم وما نوم الشجي أخي الجهد !؟

أقرة عيني: قد أطلت بكاءها
أقرة عيني: لو فدى الحي ميتا
كأنني ما استمتعت منك بنظرة
كأنني ما استمتعت منك بضمة
و غادرتها أقذى من الأعين الرمـد
فديتك بالحبوباء أول من يفـدى
ولا قبلة أحلى مذاقا من الشهد
ولا شمة في ملعب لك أو مهد

التكرار (أعيني ، أقرة عيني ، كأنني ما استمتعت منك) وكل هذه العبارات تؤكد مدى حبه وتعلقه بابنه والمكانة التي يحتلها في قلبه واستمتاعه به فضلا عن ذلك نجد الشاعر " حريصاً على أن يتم معانيه بنفسه ، ويستقصي البحث والعرض حتى لا يتعرض لأي عبث من الذين يسمعونه أو يقرءونه " (٢٨) وتأتي الذكريات الماضية التي تثير في نفسه شجواً ولوعة دائمة لا تنقضي فهو يتمنى أن يفديه لو كانت تنفع الفدية . ومع ذلك يطلب من عينيه الإجابة بالدموع بعد وضعه تحت الثرى ويقدم لهما تبريراً إذ انشغلا بالنوم بعد الجهد والتعب والأرق والسهر الذي أصابهما ، وقد برع الشاعر في فن البكاء لأن حياته كانت مليئة بالمآسي (٢٩)

ومن الصور التي ابتكرها الشاعر ابن الرومي في رثائه لابنه قوله :

تَوَخَّى حِمَامَ المَوْتِ أَوْسَطَ صَبِيئِي
فَلله كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ العَقْدِ

والتي تأثر الشاعر ابن جبير فنظم مثلها مشيراً إلى منزلة ابنه قائلاً :

وَقَدْ كُنْتُ وَسْطَى العَقْدِ فِيهِمْ قَرُبَمَا
نَقَصْتُ فَصَارَ العَقْدُ مُنْتَبِرَ الحَبِّ

وحينما يلتقي الشاعر ابن الجياب في أثناء حديثه عن ابنه راثياً له قائلاً فيها :

أحقاً ثوى ذاك الشباب فلا أرى
له بعد هذا اليوم حولي مجلسا

فيا عُصْنَا نضرا ثوى عندما استوى
فأوحشني أضعافا ما كان أنسا

تتناص هذه الأبيات مع قول ابن جبير :

بُنِيَّ أَحَقَّ صِرْتُ رَهْنَ يَدِ البَلِي
وَنَهَبَ الثَّرَى أَمْسَيْتَ يَالِكَ مِنْ نُهَبِ

بُنِيَّ عَسَاهَا نَوْمَةٌ فَانْتَبَاهَهُ
فَكَمْ ذَا أَنَادِي العَيْنَ طَالَ الكَرَى تُعْجِي

كما تقترب ألفاظ أبيات ابن الجياب (الشباب ، الغصن) مع ألفاظ ابن رشيد الفهري في قوله :

شباب ثوى شابت عليه المفارق
وغصن ذوى تاقت إليه الحدائق

ولابن الجياب قول في الفدية :

فلو أنّ هذا الموت يقبل فديةً
 يقترب فيه من قول ابن الرومي :
 أفرّة عيني لو فدى الحيّ ميّناً
 وفي قول ابن الجياب :

وصدمة خطب نازلتني عشيةً
 فقد صدعت شملي وأصمت مقاتلي
 ثبتت لها صبراً لشدّة وقعها
 وأطمع أن يلقى برحمته الرضا
 نجده متأثراً في قول ابن الرومي :

بوذيّ أني كنتُ فُدِّمْتُ قَبْلَهُ
 ولكنّ ربّي شاءَ غيرَ مشيئتي

ومن مشاركة الشاعر ابن جبير للطبيعة تظهر معاناته في قوله :

سَلِ اللَّيْلَ عَنِّي هَلْ أَنَسْتُ إِلَى الْكَرَى
 وَقَدْ رَقَّ لِي حَتَّى تَفْرَى أَيْمُهُ
 لِحَالِي أَبْدَى الرَّعْدُ أَنَّهُ مُوجَّعٌ
 وَلِي لَيْسَ الْجَوُّ الْجَدَادَ بَدُجْنَةً
 وَمِنْ أَجْلِ مَا بِي أَبَدَتِ الشَّمْسُ بِالضُّحَى
 وَكَيْفَ وَأَجْفَانِي مَعَ التَّوْمِ فِي حَرْبٍ
 وَأَقْبَلَ يَبْكِينِي بِأَنْجَمِهِ الشُّهُبِ
 وَلِي الْبَرْقُ شَعَّ فِي التَّرَامِي مَعَ السُّحُبِ
 وَأَسْبَلَ دَمْعَ الْقَطْرِ سَكْبًا عَلَى سَكْبِ
 شُحُوبَ ضِيَا قَبْلِ الْجُنُوحِ إِلَى الْحَجَبِ

مَنْ يَسْأَلُ الشَّاعِرَ ؟ أَيَجِيبُ اللَّيْلُ حَتَامَ يَسْأَلُهُ ؟ أَلَا يَجِيبُ مَنْ كَانَتْ لَهُ رِفْقَةٌ وَمَصَاحِبَةٌ مَعَهُ كَاشِفًا
 لَهُ عَنِ مَدَى السَّهْرِ وَالْأَرْقِ الَّذِي يَعْانِيهِ بِسَبَبِ فَقْدِهِ لِابْنِهِ لِذَلِكَ شَخْصَ الشَّاعِرَ اللَّيْلُ وَجَعَلَهُ يَشَارِكُهُ
 مَعَانَاتِهِ ، فَضَلَّ عَنْ مَشَارِكَةِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ وَكَأَنَّهُ يَعْطِنُ الْحَدَادَ فَالْجَوُّ ارْتَدَى لَوْنِ السَّوَادِ وَتَسَاقَطَتْ
 دَمُوعُهُ ، وَالشَّمْسُ قَدْ أَظْهَرَتْ الشُّحُوبَ حَزَنًا عَلَيْهِ فَلَمْ " يَكُنِ الشَّاعِرُ الْأَنْدَلِسِيُّ يَشْرِكُ الطَّبِيعَةَ فِي
 حُبِّهِ وَلِحَظَاتِ هِنَاءَاتِهِ فَحَسِبَ بَلْ كَانَ يَشْرِكُهَا أَيْضًا فِي أَوْقَاتِ مَحْنَتِهِ بِمَصَائِبِ الدَّهْرِ وَمَا يَنْزِلُ بِهِ
 مِنَ الْهَمُومِ " (٣٠)

وكما شاركت الطبيعة ابن جبير تشارك المعتمد بن عباد في أبيات يرثي ابنه المأمون والراضي وقد رأى قمرية نائحة على سكنها وأمامها وكر فيه طيور يرددان نغماً قائلاً فيها :

بكت أن رأيت إلفين ضمهما وكرُ	مساءً وقد أحنى على إلفها الدهر
بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرةً	يقصر عنها القطر مهما همى القطرُ
وناحت وباحت واستراحت بسرها	وما نطقت حرفاً يبوحُ به سر
فما لي لا أبكي ! أم القلب صخرة	وكم صخرة في الأرض يجرى بها نهرُ
بكت واحداً لم يشجها غير فقده	وأبكي لألافٍ عديدهم كثرُ
بني صغيراً أو خليلٌ موافقُ	يمزق ذا قفرٌ ويفرق ذا بحرُ
ونجمان زين للزمان احتواهما	بقرطبة النكداء أو رنُدة القبرُ
غدرت إذا إن ضن جفني بقطره	وإن لؤمت نفسي فصاحبها القيرُ
فقل للنجوم الزهر تبكيهما معي	لمثلهما فلتحزن الأنجمُ الزهرُ (٣١)

بتكرار الشاعر لكلمة البكاء التي تجعل دموعه تسقط عند رؤية كل شخصين سوية يثير في دواخله آهات وأحزان تذكره بابنيه ، فالبكاء وإرسال العبرات والنوح عليهما يجعل من ابنه الراضي والمأمون مثل النجمين اللذين أحدهما دفن في مدينة قرطبة والآخر بمدينة رندة ، ويرى نفسه مقصراً وغادراً إن لم تنزل دموعه لأن الصبر قد رافقه وقد صبره على فراقهما ، ولذلك فإنه يطلب من النجوم أن تسهر ولا تنام وتشاركه البكاء والصبر " فبكاء الأبناء قد يكون الدافع الأساس فيه هو إحساس الشاعر بذلك الترابط العضوي بينه وبين بنيه ، ثم شعوره بالخسارة الكبيرة التي لا تعوض لفقد الأبناء ، الذين هم المساعدون المعينون له " (٣٢)

ويختزل ابو حيان في رثائه لابنته نضار- معاني أبيات ابن الرومي في قصيدته الدالية - بقوله :

عزفت نفسي عن هذا الورى	بعدما حلت نضارُ في الثرى
فبسمعي صمم أن حدثوا	وبعيني نبوةً أن تنظرا
كيف لي عقل بأن أصحابهم	لا أرى وجه نضار النيرا
لا ولا أسمع من ألفاظها	كلما قد أبرزتها دررا
لو نظمت كُن زهر أنجم	أو نثرن كُن زهراً أنورا
قد لزمتم تربة حلت بها	عبقت طيباً ومسكاً أذفرا (٣٣)

يجعل الشاعر من حواسه الشاهد على حبه لابنته نزار مبتعداً عن الناس بموتها وقد تعطلت جميع جوارحه فهو لا يسمع ولا يرى ولا يعقل وقد لزم التربة التي دفنت فيها وهي وان ابتعدت عنه فوجودها معه وله في رثاء ابنته نزار أيضاً :

أمن بعد أن حلت نضيرة في الرسم تطيب حياتي أو تلذ بها نفسي
فتاة عراها نحو ستة أشهر سقام غريباً جاء مختلف الحبس
فحبنٌ وحمى ثم سلٌ وسعلة وسكبٌ فمن يقوى على عللٍ خمس (٣٤)

في هذه الأبيات يوضح الشاعر سبب وفاة ابنته فقد أصيبت بخمس علل قد أودت بحياتها أصابتها وهي صغيرة السن لذلك هو يشعر بعدم جدوى الحياة والعيش من دونها .
وهذه الأبيات يقترب ابو حيان فيها من قول ابن الرومي التي يقول فيها :

لكل مكان لا يسدُّ اختلاله مكان أخيه في جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفي مكانه أم السمع بعد العين يهدي كما تهدي

ودائماً ما يقترب رثاء الأبناء لدى شعراء الأندلس بذكرهم للغربة ويتضح ذلك في قول ابن رشيد في قصيدته قائلاً :

غريبين كُنَّا فَرَّقَ البينَ بَيْنَنَا بأبرح ما يلقى الغريب المفارقُ
فَبِينٌ وَبَعْدٌ بِالغَريبِ تَوَكَّلَا فذرعني بما حُمَلتِ وآلله ضائقُ
عَسَى وَطَنٌ يَدنو فَنَدنو مَنىً بِهِ وأي الأمانى وَالخُطوبِ عَوائقُ
فَلولا الأسى ذاب الفؤاد من الأسى وكولا البكى لم يحمل الحزن طائقُ
يَخطُ الأسى خَطًا تَروق سَطوره وَيَمحو البكى فالدمع ماح وَماحقُ

يبدو أن الشاعر يعاني من غربة فقد ابنه ، وغربة الفرقة والبعد عنه لاسيما إذا كان الموت قد خطف منه ابنه وهو بعيد عنه ، لذلك هو يمني نفسه بتحقيق الأمانى بوطن واحد يجمعهما معاً لكن العذاب والأسى قد أذاب قلبه ودموعه كانت المعين له والمفرج عنه همه وكربه . وكذلك قول ابن جبير مشيراً إلى غربته وأسباب وفاة ابنه بقوله :

وَرَادَ عَلَى العِشرينَ سِنُكَ أَرْبَعَا فَعَجَلَكَ الحَينُ المُقَدَّرُ بالرَّقبِ
شهيدياً لطاعون أصابك بعتة كمثل شهيد الطعن في الحرب والضرب
وكنت غريباً فاستردت شهادة لأخرى كبشر سيد العجم والعرب

يصرح الشاعر بأبياته إلى عمر ابنه وقد وافاه الأجل وهو في الرابعة والعشرين من عمره مؤكداً صغر سنه وسبب وفاته بمرض الطاعون غريباً بعيداً عن أهله ، فإن " موت أحد المقربين للإنسان هو موت لجزء كبير من حياته . فهي تتشكل من خلال نسيج من العلائق الاجتماعية ، فإذا حل الموت بأحدهم ترك في حياته فراغاً كبيراً تتحول لحظاته إلى شريط ذكريات يشده إلى معاناته ويجعله يدور في فلكها ، أو أي تأملات يجوب بها عوالم الفكر " (٣٥)

وكما يشير ابن الرومي إلى سبب وفاة ابنه وصغر سنه بقوله :

لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللُّحْدِ لُبُّهُ فلم يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضُمَّ فِي اللُّحْدِ
تَنَعَّصَ قَبْلَ الرَّيِّ مَاءَ حَيَاتِهِ وَفُجِعَ مِنْهُ بِالْعُدُوبَةِ وَالْبِـرْدِ
أَلَحَّ عَلَيْهِ التَّرَفُّ حَتَّى أَحَالَهُ إِلَى صُفْرَةِ الْجَادِيِّ عَنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ

المقطوعات الشعرية لثناء الأبناء

اتخذ موضوع الرثاء منحى آخر غير نظمه في قصائد واقتصرت مضامينه على بعض مضامين القصائد الطوال التي عالجت غرض رثاء الأبناء وهي المقطوعات وفيها " بكاء الأجزاء من الموتى والتأسي عليهم والتوجع لمصابهم " (٣٦) وقد رثى أبو الوليد الباجي في مقطوعة ابنين اثنين ماتا مغتربين فمما قال فيهما :

رعى الله قبرين استكانا ببيـلدة هما أسكناها في السواد من القلب
يقر بعيني أن أزور ثراهـمـا وألصق مكنون الترائب في التراب
وأبكي ، وأبكي ساكنيها لعنـي سأنجدُ من سحب وأسعدُ من سحب
وما ساعدت ورق الحمام أـخـا أسـى ولا روحت ريح الصبـا عن أخي كرب
ولا استعذبت عيناـي بعدهما كـرى ولا ظمئت نفسي إلى البارد العذب (٣٧)

إن من عظم معاناة الشاعر القبرين اللذين ضما ولديه ، مشيراً إلى أن غربته المكانية والبعد عن ابنه زادا معاناة الشاعر إلى جانب موتهما إذ لم يرحه شجو الحمام ولا ريح الصبا ، ولم يستلذ بمباهج الحياة ويبدو حزنه على أبنائه كان كبيراً لذلك يكرر لفظة البكاء مرتين فيجعل قرّة عينيه زيارتهما وإصاق صدره على قبريهما لأنه ابتعد عن كل ما تلتذ به عيناه ويفرح فؤاده به . ونجد

هذه المقطوعة قريبة المعنى والقافية من مقطوعة ابن الرومي ولعل ابا الوليد اختزل مقطوعته المكونة من بيتين منتفعاً منها ناسجاً مقطوعته على منوالها .

وهذه مقطوعة ابن الرومي التي يرثي فيها ابنه يتضح فيها غربته النفسية يقول فيها :

يا غائباً عني بعيد الإياب نَعَصْنِي فَقَدْكَ بَرَدَ الشَّرَابُ

لهفي على ألبسك ثوبَ البلى من قبل إخلاقك ثوبَ الشباب (٣٨)

يخاطب ابنه الغائب الذي أفقد أباه الشعور بلذة الماء والحياة ، فيالها من لهفة على من فقد شبابه ولبس ثوب البلى والموت ودفن ابنه في التراب ، ولاسيما أن الشاعر فقد أبناءه وهم صغار السن ولم يتمتعوا بأعمارهم ولم ير شبابهم .

ولابي الوليد الباجي مقطوعة أخرى يرثي فيها ابنه محمداً :

أحمداً إن كنت بعدك صابراً صبر السليم لما به لا يسلمُ

ورزئتُ قبلك بالنبي محمد ولرزوه أدهى لدي وأعظم

فلقد علمتُ بأنني بك لاحقٌ من بعد ظني أنني متقدمُ

لله ذكُر لا يزال بخاطري متصرفاً في صبره مستحکمُ

فإذا نظرتُ فشخصه متخيلٌ وإذا اصخْتُ فصوته متوهم

وبكل أرض لي من أجلك لوعةٌ وبكل قبر وقفةٌ وتلومُ

فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسمه ودعاه باسمك معول بك مُعرمُ

حُكْمُ الردى ومناهج قد سنّها لأولي النهى والحزن قبل مُتممُ (٣٩)

يعلل الشاعر صبره على ابنه بأنه مثل المريض الذي لا يرجى أمل من علاجه ويقدم تبريراً لنفسه بأن النبي محمد (ص) قد مات ومن بعده يموتون فكأن الحياة مصيرها للفناء والموت فإن " الموت سنة من سنن الكون ، فهو الغاية والنهاية لكل إنسان إذ الناس جميعاً لا بد أن يرحلوا عن دنياهم " (٤٠) فقد كان في ظنه أنه سوف يموت قبله لا بعده فالمصير واحد، وهو لا يزال يتذكره ويراه في كل مكان ويسمع صوته فكل قبر يثير عنده الأشجان والأحزان وكل مكان يعني له لوعة وذكرى، والموت قضاء وقدر محتوم على كل إنسان .

ونلاحظ تأثر الشاعر في أبياته بمقطوعة ابن الرومي وهو يرثي ابنه هبة الله قانلاً فيها :

شجاً أن أروم الصبر عنك فيلتوي عليّ ولوّم أن يساعدي الصبرُ
 فيا حَزَنِي أن لا سلوُّ يُطيعني ويا سوءًا من سلوتي إنها غدرُ (٤١)

يتأسى الشاعر بالصبر كي يتمكن من نسيان ابنه ، ولكن الصبر لا يساعده ، والسلوى يعدها غدرًا
 منه لذكرى ابنه لأنها تنسيه فيراها خطيئة لا يمكن الركون إليها .

ويداني الشاعر ابن رشيد الفهري في قوله :

محمّد إنّ الصبر صبر وعلّم عليّ أنّه حلو المئابّة سابقُ
 فإن جزعاً قاله للعبد عاذر وإن جلدًا قاله للوعد صادقُ
 وتالله ما لي بعد عيشك لدة ولا راقني مرأى لعيني رائقُ

قول الشاعر ابن الرومي في مقطوعته :

شجاً أن أروم الصبر عنك فيلتوي عليّ ولوّم أن يساعدي الصبرُ
 فيا حَزَنِي أن لا سلوُّ يُطيعني ويا سوءًا من سلوتي إنها غدرُ (٤٢)

وقوله أيضاً :

تكلتُ سرُوري كلّهُ إذ تكلتُهُ وأصبحتُ في لذاتِ عيشي أخا زُهدٍ

ومن الجدير ذكره إنّ المقطوعات التي قالها ابن الرومي يرثي فيها ابنه يختزلها الشاعر ابن
 الجياب في قصيدته السينية التي عرضناها فيما تقدم فتتناثر ألفاظها ومعانيها على طوال أبياتها ،
 والتي يقول فيها :

حماة الكرى همّ سرى فتأوبا فبات يُراعى النجم حتى تصوبا
 أعيني جودا لي فقد جدت للثرى بأكثر مما تمنعان وأطيبا
 بُني الذي أهديته أمس للثرى فله ما أقوى قناتي وأصلبا
 فإن تمنعاني الدمع أرجع إلى أسيّ إذا فترت عنه الدموغ تلهبا (٤٣)

يرى الشاعر أن الهم الذي أصابه من جراء فقدته لابنه أبغاه ساهراً يراعي النجوم وينتظر ،
 ويطلب من عينيه أن تجودا بالدمع على ثرى ابنه ، مشيراً إلى الأذى والمصاب الذي أصيب به ،
 فهو قد أودع ابنه في الثرى وتعجب من قسوة قلبه وصلابته ، فهم إذ يمنعونه من البكاء يتجه إلى
 الأسيّ إذا خانته دموعه .

وفي إشارة من الشاعر ابن الرومي يجعل أبنائه وبيان منزلتهم وعدم الاستغناء عنهم بمنزلة الجوارح قائلاً :

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
في حين يجعل ابن عبد ربه ابنه بمنزلة كبده عندما يرثيه لذلك يصرخ متألماً وكأنما موته أصابه
في كبده مشيراً إلى ذلك بقوله :

واكبدا قد تقطعت كبدي وحرقتها لواعجُ الكمد
ما مات حيٌ لميت أسفاً أعذرُ من والدٍ على ولد
يا رحمة الله جاوري جدثاً دفنتُ فيه حُشاشتي بيدي
ونوري ظلمة القبر على من لم يصل ظلمه إلى أحد (٤٤)

يعاني الشاعر من حرقة لواعجه وتقطع كبده ، وينفي هذا الوالد أن يكون ولده قد مات لذلك هو يدعو لهذا القبر الذي ضمه بالرحمة ، والضياء والنور إذ هو لم يَعْتَدِ على أحد .

ولم يقتصر تأثر شعراء الأندلس على شعر ابن الرومي فقط بل نجد المعاني والألفاظ تتكرر بينهم أيضاً فنلاحظ تأثر ابو الوليد الباجي في مقطوعته مع قصيدة ابن رشيد الفهري في قوله :

فلقد علمتُ بأنني بك لاحقٌ من بعد ظني أنني متقدمٌ
فإذا نظرتُ فشخصه متخيلٌ وإذا اصختُ فصوته متوهم
فإذا دعوتُ سواك حاد عن اسمه ودعاه باسمك معول بك مُعزمٌ (٤٥)

وهاك قول ابن رشيد :

فإن ألتفتُ فالشخص للعين مائل وإن أستمع فالصوت للأذن طارقٌ
وإن أدع شخصاً باسمه لضرورة فإن إسمك المَحَبوب للنطق سابقٌ

ويتجلى في قول الشاعر ابن رشيد الفهري التأثر واضحاً :

فيا واحداً قد كان للعين نورها أكل ضياء بعد بُعدك غاسقٌ
عليك سلام الله ما حن عاشقٌ وما طلعت شمس وما ذرّ شارقٌ

في قول محمد بن المنذر أبي الوليد حينما خاطب ابنته التي توفيت بقوله :

واحدتي قد كنت أرجوك خلفاً لعيني أختيك اللتين سبا الدهرُ

رضيتُ بحكم الله فيما أصابني إذا لم يكن يسراً فيا حبذا العسرُ (٤٦)
 يذعن الشاعر للقضاء والقدر ويستسلم لوفاة ابنته التي تركته وتوفيت بعد خلعه وسمل عينيه إذ فقد
 قبلها أختين فجعه الدهر بهما .

ويقول الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن يحيى الهنتاني :

ألا جازع بيكي لفقد حبيبه فإني لعمرى قد أضربى الثكلُ
 لقد كان لي مال وأهل فقدتهم فهأنذا لا مالٌ لدي ولا أهلُ
 سأبكي وأرثي حسرةً لفراقهم بكاء قريح لا يملُ ولا يسلُ
 فلهفي ليوم فرق الدهر بيننا ألا فرج يرجى فينتظم الشمْلُ
 وإني لأرضى بالقضاء وحكمه وأعلم ربي أنه حاكمٌ عدلُ (٤٧)

ويبدو أن الحالة التي فيها الشاعر هي منتهى الألم والحسرة ، ففقدان الابن والأهل يعني له
 خسارة الذين يرثيهم بشجى وقلوب كمدة وتأنيبه الدهر راجياً من الله الفرج واستسلامه للقضاء
 والقدر ورضوخه لعدل الله وحكمه العادل راضياً قانعاً بعد أن استفتح مقطوعته بملاقاة الجازع لفقد
 حبيب على قلبه وكأنه وصل إلى حالة الجزع فيعطي نتيجة مسبقة عن ثكله بابنه فهو إنما وصل إلى
 هذه الحالة لفقدان أهله وماله الذي خلف لديه حسرات وآهات لا تنقضي لذلك يفضل الموت ويختاره
 على الحياة ولكنه استدرك حاله بذكره الله والرجوع إليه والإيمان به .

وتأتي هذه المقطوعة متشابهة مع قول الشاعر ابن رشيد في قصيدته :

فإن جزعاً فالله للعبد عاذر وإن جلدًا فالله للوعد صادقُ
 وتالله ما لي بعد عيشك لذة ولا راقني مرأى لعيني رائقُ

ومما يثير الدهشة قول الشاعر ابن سارة في مقطوعة يرثي فيها ابنته:

ألا يا موت كنت بنا رؤوفاً فجددت السرور لنا بزوره
 حمدنا سعيك المشكور لما كفيت مؤونة وسترت عوره

فانكحنا الضريح بلا صداق وجهزنا العروس بغير شوره (٤٨)

من الغريب أن يجعل الشاعر من موت ابنته رافة ورحمة به في مجتمع متقدم يعز الفتاة ويجعل
 منزلتها ما دونها منزلة مجتمع منفتح على الحياة يتمتع بأفضل المباحج والرفاهية ، إلا إننا نجد عنده

تلك النظرة السوداوية التي تؤمن بوأد البنات وعدم الفرح والاستبشار بهن ، ومما يزيد قوله أسفاً أنه يوجه الشكر والحمد لموت هذه الفتاة ، فضلا عن تلك المشاعر والأحاسيس البائسة التي يحملها تجاه ابنته، فيا ترى هل هذه حقيقة أو أنه تأثر بمن قبله من الشعراء ؟ ونجد هذه النظرة عند الشاعر العباسي عبيد الله بن عبد الله بن ظاهر :

لكل أبي بنت يراعي شؤونها ثلاثة أصهار إذا طلب الصهرُ
 فيعل يراعها وخدر يكنها وقبر يواريهما وخيرهما القبرُ (٤٩)
 وبالمعنى واللفظ نفسه يعبر الشاعر العباسي عقيل بن علفة المرى أيضاً عن تلك النظرة المتخلفة إلى البنت بقوله :

إني وإن سيق إلي المهر ألف وعبدان وذود عشر

أحب أصهاري إلي القبرُ (٥٠)

بينما ابن حمديس عندما يرثي ابنته في قصيدة لا مقطوعة فإنه يرثيها بمعان ومشاعر جياشة متدفقة يختلط فيها الشعور بالغربة والأسى على موتها في نظرة يعز فيها البنت ويجلها، ولنلاحظ الفرق بين قول ابن سارة وقوله :

وأنكحتها من بعد صدق حمدئهُ كريماً فلم تدمُ مُعاشرة البعل
 أراني غريباً قد بكيتُ غريبةً كلانا مشوقٌ للمواطن والأهل
 بكتني وظنت أنني مت قبلها فعشتُ وماتت وهي محزونة قبلي
 أقامت على موتي الذي قيل ماتماً وأبكت عيون الناس بالطل والويل
 أساكنة القبر الذي ضم فطرهُ على البر منها والديانة والفضل (٥١)

ومما يزيد لوعة الشاعر وآهاته البعد والغربة والنأي عن ابنته وقد سمع بموتها فبعد أن كانت تبكيه وتخشى موته وهو بعيدٌ عنها فأنها سبقته بالموت مما جعله يشعر بالغربة لابنته وله فرثاها بهذه القصيدة والجدير ذكره " أن جانب المأساة هو العامل الأكبر في إثارة شعر ابن حمديس ، فهي التي فجرت الينبوع الأصيل في تلك النفس الشاعرة ... " (٥٢) وموت ابنته وهي بعيدة عنه جزء من المأساة التي يعانيتها ولعل الموت والغربة قد أخذوا منه كل مأخذ وكانا سببي معاناته وآهاته .

مما تقدم يتضح : توظيف الشعراء مقطوعاتهم الشعرية في غرض رثاء الأبناء - الذكور والإناث - ولاحظنا أيضاً تركيز الشاعر على جانب معين أو معنى محدد يرثي فيه ابنه أو ابنته

ويبقى شعر الرثاء جزءاً يتناول الشاعر فيه صفات المرثي ومحامده ساعياً إلى تسجيل فضائله وكأنه يريد أن يحفرها حفراً كي لا تنسى على مر العصور (٥٣) إلا إن من اللافت للنظر أن نلاحظ لدى الشاعر ابن سارة في رثائه لابنته تلك النظرة الجاهلية للفتاة على عكس الشعراء الذين أوردنا شعرهم مثل أبي حيان ومحمد بن المنذر فضلاً عن رثاء الشاعر ابن حمديس .

الخاتمة

تتناغم أصداء الحزن مع لوعة الحنين وزفرات الأنين متضامنة مع شوق اللقاء وذكريات الماضي لتنعى الابن الفقيد الذي خطفته يد المنون ، ويتقاسم الشاعر ابن الرومي مع شعراء الأندلس الغرض والتجربة الشعرية نفسها .

ومن خلال دراستنا لهذا الغرض وجدنا أن ثمة تشابهاً في قصائد رثاء الأبناء ومقطوعاته لاسيما المضمون والبنية بل حتى الألفاظ والعبارات والمعاني ، ومثلما هو معروف إن الشاعر المشرقي ابن الرومي عرف بحزنه ورثائه على أبنائه في قصائد ومقطوعات أشار إليها عند نظمه وهي من أكثر الموضوعات تعبيراً عن وفاء الشاعر وطبيعته الخصبة وسخاء نفسه وعظمة فنه وقدرته على اقتحام الخلود فقد تفوق في غرض الرثاء لأن جملة حياته كانت مآسي متوالية ، وقد لاحظنا أن الأفكار والمعاني والأوزان متناثرة في قصائد الشعر الأندلسي ومقطوعاته ولاسيما الشعراء الذين خاضوا في هذا الغرض والموضوع ذاته .

وقد تكونت قصائد الشعراء من رؤى وجدانية يعبر فيها عن تجارب ذاتية يمرون بها ومنها غرض رثاء الأبناء إزاء معاناة تملكهم يدركونها بحواسهم الظاهرة ويعيشون أصداءها بقواهم الباطنة التي تنعكس على كياناتهم الخارجي عاكسة حقيقة الصراع المستمر بين عالمهم الداخلي وإحساسهم بالواقع الخارجي انطلاقاً من فهمهم الخاص للحياة وطبيعة العلاقات الإنسانية فيها ، وأوجه التشابه التي وجدناها في قصائد الشعر الأندلسي وابن الرومي ومقطوعاته في رثائهم للأبناء هي إن قصائد الشعر الأندلسي نظمت على بحر الطويل وهي كل من قصيدة ابن جبير وابن رشيد الفهري وابن الجياب وكذلك هي حال قصيدة ابن الرومي يؤدي التكرار أثراً كبيراً في الجانب الإيقاعي في تأكيد وصول المعلومة وأهميتها والإلحاح عليها، والألفاظ واضحة بسيطة وبعيدة عن التعقيد تهتم أولاً وآخرأ بإيصال مشاعر الأسي والحزن إلى المتلقي ، فضلاً عن أسلوب الاستفهام

والنداء ولم نجد هناك أي تفنن أو تلاعب بالألفاظ والعبارات وإنما هي مليئة بألفاظ المعجم الشعري فهي نصوص تدور حول موضوع واحد هو الرثاء وما فيه من ندب وعويل وبكاء على المرثي واستذكار أيامه التي قضاها مع ابنه ، ونجد الشكوى إلى الله والاستسلام للقضاء والقدر والإيمان به ، وحديث الشاعر عن نفسه وعن أحزانه وحسراته وفراقه لابنه ، وتصريح الشاعر باسم ابنه المرثي وتمني عودته وحث النفس على المداومة على البكاء والحزن الشديد لفقده ، والسلام عليه والدعاء له بالسقيا وطلب الرحمة والمغفرة ، وعدم نسيانه وذكر صغر سنه ، ومن الصور الطريفة التي جاء بها الشاعر ابن الرومي تشبيه الابن الأوسط بواسطة العقد التي تربط جميع أجزاء العقد ومن دونها تتساقط حباته وهذه الصورة تأثر بها الشاعر الأندلسي ابن جبير ، كذلك الشعور بالشقاء والتعاسة بعد موته وتغير حياتهم وعدم اللذة بالعيش وتمني اللحاق به ، ومشاركة الطبيعة للشاعر في معاناته وآهاته وكثرة التعجب من الأمور التي تحدث والمصاب الذي هم فيه ، فضلاً عن قلة رثاء البنات إلا ما ندر ومنها ابن حمديس وأبي حيان ورثاء ابن سارة الذي نلاحظ فيه النظرة الجاهلية ، أما المقطوعات فإنها تقدم ومضة من هذه النقاط التي ذكرناها المكونة للقوائد من دون أطالة أو إسهاب في عرض المشاعر والأحاسيس التي يحملها الرائي للمرثي وفيها يتفوق الشاعر الأندلسي على الشاعر ابن الرومي في عرض أحزانه وآهاته .

الهوامش

- (١) الشعر في عهد المرابطين والموحدين : محمد مجيد السعيد : ٢٩٤ .
- (٢) ينظر : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين : د . فوزي سعد عيسى : ٢٣١ . واتجاهات فن الرثاء في الأندلس في عصري الموحدين وبنو الأحمر : عبد الحسين طاهر محمد : ٩٢ .
- (٣) مقالات في الشعر الجاهلي : يوسف اليوسف : ٣٣١ .
- (٤) قصيدة الرثاء، جذور وأطوار ، دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام: د. حسين جمعة: ٣٣٥ .
- (٥) ينظر : ابن الرومي حياته وشعره : روفون حسنت ، ترجمة د. حسين نصار : ١٢ .
- (٦) ينظر : ابن الرومي حياته من شعره : عباس محمود العقاد : ٩٥ .
- (٧) اتجاهات الشعر الأندلسي إلى نهاية القرن الثالث الهجري : د. نافع محمود : ١٧٨ . وينظر : النصوص الأدبية المختارة : د. علي حسين العتوم : ٧٢ .
- (٨) أصول علم النفس في الأدب العربي القديم : زهدي جار الله : ٨٩ .
- (٩) ديوان ابن الرومي : ١ / ٦٢٤ .
- (١٠) المستدرك على شعر ابن جبير : صنعة د. محمد عويد السايير ، مجلة المورد ، ٢٤ ، ٢٠٠٤ :
- ١٢٠ - ١٢٦ . وينظر : أعلام مالقة ، ابن عسكر ، وابن خميس ، تقديم : د. عبد الله الترغي : ١٤٧ .
- (١١) الاحاطة : ٤ / ١٠٨ .
- (١٢) الحياة والموت في الشعر الجاهلي : مصطفى عبد الطيف جياووك : ١٦٤ .
- (١٣) الاحاطة : ٣ / ١٠٦ .
- (١٤) قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري : د. محمود عبد الله الجادر : ١٦٧ .
- (١٥) الرؤى والأدوات عند شعراء القرن الثاني الهجري : د. صلاح الدين أحمد دراوشة : ٥٩٧ .
- (١٦) نزار قباني والنثر رثاء ولده توفيق نموذجاً : د. سهيل الخصاونة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٨٠ ، ج ٣ ، ٢٠٠٥ : ٦١١ .
- (١٧) أدباء العرب وعصر الانبعاث : بطرس البستاني : ١٥٠ .
- (١٨) الموت بين العاطفة والخيال : د. سهيل الخصاونة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٧٩ ، ج ٤ ، ٢٠٠٤ : ٨٠٤ .

- ١٩) الشعر بين الرؤيا والتشكيل : د. عبد العزيز المقالح : ٢٧ .
- ٢٠) في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي : د. أحمد محمود خليل : ١٢٧ .
- ٢١) الموت والحرية في قصيدة جاهلية : أحمد عبد المعطي حجازي، مجلة المعرفة، ع١٠٣، ١٩٧٠، ٧١ .
- ٢٢) ينظر : الاستسقاء في الشعر الجاهلي : د. أنور ابو سويلم ، مجلة مؤتة ، مج١ ، ع١٦ ، ١٩٨٦ ، ٩٠ - ٩١ .
- ٢٣) الموت بين العاطفة والخيال : ٧٩٩ .
- ٢٤) سورة المطففين : ٢٧ .
- ٢٥) سورة الكهف : ٣١ .
- ٢٦) العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ١٠٦ / ٢ .
- ٢٧) ينظر : العمدة في محاسن الشعر وآدابه : ١٠٣ / ٢ .
- ٢٨) من حديث الشعر والنثر : طه حسين : ١٣٤ .
- ٢٩) ينظر : قراءة في ديوان ابن الرومي : د. كامل سغفان : ٨٠ .
- ٣٠) فصول في الشعر ونقده : د. شوقي ضيف : ١٥ .
- ٣١) ديوان المعتمد بن عباد : ٦٨ - ٦٩ .
- ٣٢) الرثاء في شعر العصر العباسي الأول : مظفر عبد الستار ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة البصرة : ٢٦٠
- ٣٣) ديوان ابي حيان : ٢٠٠ .
- ٣٤) ديوان ابي حيان : ٢٢٨ ، وينظر الصفحات : ١٢٣ ، ١٤٣ ، ١٥٣ ، ١٧٨ ، ٢٦٦ .
- ٣٥) المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام : مقبول علي بشير النعمة : ١٤٨ .
- ٣٦) أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي : منذر الجبوري : ١٤٠ .
- ٣٧) نفح الطيب : ٧٥ / ٢ .
- ٣٨) ديوان ابن الرومي : ٣٤٨ / ١ .
- ٣٩) نفح الطيب : ٧٥ / ٢ .
- ٤٠) عصر الدول والإمارات الأندلس : د. شوقي ضيف : ٣٣١ .
- ٤١) ديوان ابن الرومي : ١٠٠٤ / ٣ .
- ٤٢) ديوان ابن الرومي : ١٠٠٤ / ٣ .

- ٤٣) ديوان ابن الرومي : ١ / ٢٤٤ .
 ٤٤) ديوان ابن عبد ربه : ٣٠٩ ، وينظر الصفحات : ١٠٢ ، ١١٨ .
 ٤٥) نفح الطيب : ٢ / ٧٥ .
 ٤٦) الحلة السبراء : ٢ / ٢٠٨ .
 ٤٧) الإحاطة : ١ / ٣١٣ .
 ٤٨) الإحاطة : ٣ / ٣٣٥ .
 ٤٩) ديوان المعاني : ٢ / ٢٥١ .
 ٥٠) ديوان المعاني : ٢ / ٢٥١ .
 ٥١) ديوان ابن حمديس : تح د . إحسان عباس : ٣٦٥ - ٣٦٦ .
 ٥٢) محاولات في النقد والدراسات الأدبية : د . إحسان عباس : ٣ / ١٣٥ .
 ٥٣) ينظر : ظاهرة الحزن في شعر متمام بن نويرة اليربوعي د . نهى محمد عمر ، مجلة جامعة تكريت ، مج ١٧ ، ٢٤ ، ٢٠١٠ : ١٣٨ .

المصادر والمراجع

القران الكريم

- ابن الرومي حياته من شعره : عباس محمود العقاد ن ط٥، المكتبة التجارية الكبرى (القاهرة - ١٩٦٣)
 - ابن الرومي حياته وشعره : روفون حسنت ، ترجمة د . حسين نصار ، دار الثقافة (بيروت - دت)
 - الإحاطة في أخبار غرناطة : لسان الدين بن الخطيب ، شرحه وضبطه وقدم له د . يوسف علي طويل ، ط ١ ، دار الكتب العلمية (بيروت - ٢٠٠٣)
 - أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث : بطرس البستاني ، ط ٦ ، دار المكشوف ودار الثقافة (بيروت - ١٩٦٨)
 - أصول علم النفس في الأدب العربي القديم : زهدي جار الله ، دط (بيروت - ١٩٧٨)
 - أعلام مالقة : ابن خميس وابن عسكر : تقديم وتخريج وتعليق د . عبد الله الترغي ، ط ١ ، دار الأمان -
 ودار الغرب الإسلامي (بيروت - ١٩٩٩)
 - أيام العرب وأثرها في الشعر الجاهلي: منذر الجبوري، ساعدت جامعة بغداد على طبعه (بغداد - ١٩٧٠)

- الحلة السبراء : ابن الأبار ، حققه وعلق حواشيه ، د. حسين مؤنس ، ط ٢ ، دار المعارف (القاهرة - ١٩٨٥)
- الحياة والموت في الشعر الجاهلي : مصطفى عبد جياووك ، دار الحرية للطباعة (بغداد - ١٩٧٧)
- ديوان ابن حمديس : صححه وقدم له د. إحسان عباس ، دار صادر (بيروت - دت)
- ديوان ابن الرومي: تح د. حسين نصار ، ط ٣ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة - ٢٠٠٢)
- ديوان ابن عبد ربه : جمع وتصحيح وتقديم وشرح د. محمد رضوان الداية ، ط ٣ ، دار الفكر (دمشق - ٢٠٠٣)
- ديوان ابي حيان الأندلسي : تح د. أحمد مطلوب ، د. خديجة الحديثي ، ط ١ ، مطبعة العاني (بغداد - ١٩٦٩)
- ديوان المعاني : ابو هلال العسكري ، تح كرنكو ، مكتبة القدس (القاهرة - ١٣٥١)
- ديوان المعتمد بن عباد : د. حامد عبد المجيد ، وأحمد أحمد بدوي ، مراجعة د. طه حسين ، ط ٥ ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية (القاهرة - ٢٠٠٨)
- الرؤى والأدوات عند شعراء القرن الثاني الهجري : د. صلاح الدين أحمد دراوشة ، ط ١ ، عالم الكتب الحديث (الأردن - ٢٠١٠)
- الشعر الأندلسي في عصر الموحدين : د. فوزي سعد عيسى ، ط ١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر - ١٩٧٩)
- الشعر بين الرؤيا والتشكيل : د. عبد العزيز المقالح ، ط ١ ، دار العودة (بيروت - ١٩٨١)
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين : محمد مجيد السعيد ، دار الرشيد للنشر (العراق - ١٩٧٩)
- عصر الدول والإمارات (الأندلس) : د. شوقي ضيف ، ط ٤ ، دار المعارف (القاهرة - دت)
- فصول في الشعر ونقده : د. شوقي ضيف ، دار المعارف (القاهرة - دت)
- في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي: د. أحمد محمود خليل ، ط ١ ، دار الفكر (بيروت - ١٩٩٦)
- قراءة في ديوان ابن الرومي : د. كامل سعفان ، دار المعارف (مصر - ١٩٨٦)
- قراءة معاصرة في نصوص من التراث الشعري : د. محمود عبد الله الجادر ، ط ١ ، دار الشؤون الثقافية العامة (بغداد - ٢٠٠٢)
- قصيدة الرثاء ، جذور وأطوار ، دراسة تحليلية في مراثي الجاهلية وصدر الإسلام : د. حسين جمعة ، ط ١ ، دار النمير ودار معد للطباعة والنشر والتوزيع (سوريا - ١٩٩٨)
- محاولات في النقد والدراسات الأدبية: د. إحسان عباس، ط ١ ، دار الغرب الإسلامي (بيروت - ٢٠٠٠)

- المراثي الشعرية في عصر صدر الإسلام: مقبول علي بشير النعمة، ط١، دار صادر (بيروت ١٩٩٧)
- مقالات في الشعر الجاهلي : يوسف اليوسف ، ط٣ ، دار الحقائق (بيروت - ١٩٨٣)
- من حديث الشعر والنثر : طه حسين ، ط١٠ ، دار المعارف (مصر - ١٩٦٩)
- النصوص الأدبية المختارة : د. علي حسين العتوم، ط١، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع (الكويت - ١٩٩٥)
- نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب : أحمد بن محمد المقرئ التلمساني د. إحسان عباس، دار
صادر (بيروت - ١٩٦٨)

الدوريات :

- الاستسقاء في الشعر الجاهلي : د. أنور ابو سويلم ، مجلة مؤتة ، مج ١ ، ع ١٤ ، ١٩٨٦ .
- ظاهرة الحزن في شعر متمم بن نويرة اليربوعي د. نهى محمد عمر ، مجلة جامعة تكريت ، مج
١٧ ، ٢٤ ، ٢٠١٠ .
- المستدرك على شعر ابن جبير : صنعة د. محمد عويد السايير ، مجلة المورد ، ع ٢٤ ، ٢٠٠٤ .
- الموت بين العاطفة والخيال : ابن الانباري يرثي ابن بقية ، د. سهيل محمد الخصاونة ، مجلة
مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٧٩ ، ج ٤ ، ٢٠٠٤ .
- الموت والحرية في قصيدة جاهلية: أحمد عبد المعطي حجازي، مجلة المعرفة، ع ١٠٣، السنة التاسعة ١٩٧٠ .
- نزار قباني والنثر : رثاء ولده توفيق نموذجاً . سهيل الخصاونة ، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق مج
٨٠ ، ج ٣ ، ٢٠٠٥ .

الرسائل والأطاريح :

- اتجاهات فن الرثاء في الأندلس في عصري الموحدين وبنو الأحمر ، دراسة في البنية الموضوعية
والفنية : عبد الحسين طاهر محمد الربيعي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة البصرة، كلية الآداب ، ٢٠٠٢ .
- الرثاء في شعر العصر العباسي الأول : مظفر عبد الستار ، رسالة ماجستير ، جامعة البصرة ،
كلية الآداب ، ١٩٨٤ .